مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثالث عشر، يونيو 2010
Journal of Alasmarya University
Volume 13, June 2010

النص الرابع أو ما بعد نقد النقد البلاغي

المفهوم ومجال البحث

د. أحمد عبد الجبار فاضل*

أ. الخطاب الواحد المتعدد (مدخل إفهامي)

إذا كانت النصوص والخطابات متعددة ومتنوعة بين أدبية وفلسفية وعلمية ومنطقية وإلى غير ذلك، فإن النص الأدبي بوصفه خطاباً ليس واحداً أيضاً؛ إذ يمكننا توصيف أشكال متعددة من النصوص تنتمي كلها للخطاب الأدبي، بمعناه الأوسع المعتمد على مفهوم نظرية الأدب.

فهناك أولاً: النص الإبداعي الأدبي (النص الأول)، ثم النص الأدبي التوصيفي للظاهرة الإبداعية، وهو يتشاكل مع النص النقدي الأول ليشكلا (النص الثاني)، المعتمد على توصيف الظاهرة الأدبية الإبداعية والحكم عليها، وتأتي الممارسة النقدية الثانية لتشكل (النص الثالث) الذي يعتمد على مقاربة النص النقدي الأول بتوصيف وحكم ليشكل مفهوم (نقد النقد)، الذي يحاول «استلهام معطيات الخطابات النقدية الأُوَل ويبني عليها تصوراته، ثم يعمل على الحكم عليها مرة ثانية، فهو يعمل على إعادة إنتاج الخطاب النصي مرة أخرى»[1].

---

* جامعة المرقب.

1- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، دراسة سيميائية، محمد سالم سعد الله، رسالة ماجستير (مخطوطة)، كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق، ت 1420هـ- 1999م، ص32.

بمعنى أننا أمام نصوص وخطابات متعددة، خطاب أدبي إبداعي وتقويمي وصفي للتجربة الإبداعية، ثم الخطاب النقدي الأول وهو « خطاب تقويم وحكم، والخطاب النقدي الثاني، خطاب تقويم وحكم ونقد وإعادة إنتاج »[2]. والخطاب النقدي الثاني هو مجال بحثنا، أي ما يسمى في معجم مصطلحات الحداثة (نقد النقد)، وذلك في محاولة نقدية لكتابة نص جديد يمكن أن يكون نصاً رابعاً.

وإذا كان لمصطلح (نقد) عُمْقُ تشكله المعرفي في تاريخ التطور المفاهيمي في ظل مفاهيم النظرية النقدية والأدبية[3]، وعلى الرغم من هذا العمق المعرفي الطويل تاريخياً لم يخلُ المصطلح من مشاكل تصل إلى حد الإشكالية النقدية، فضلاً عن عدم التحديد النهائي لهذا المصطلح الإشكالي حقاً، فإن مصطلح (نقد النقد) يبدو غامضاً من الناحية النقدية التنظيرية خصوصاً، بالقياس إلى كثافة توافره في الخطاب النقدي وسط المفاهيم المتداولة في مجمل هذا الخطاب. إن المشكلة في غموض المصطلح لا ترجع إلى حداثته في التشكل ألمفاهيمي المعاصر للمصطلحات النقدية الحداثية فقط، بل إلى قلة النصوص النقدية التنظيرية الشائعة لهذا المفهوم الحديث.

فعلى الرغم من أن تطبيقاته متوافرة في النقد العربي القديم والحديث، إلا أن مفهومه النظري وأبعاده النقدية لم تتشكل إلا حديثاً مع حركة النقد الحديث الممثلة بالشكلانيين الروس سنة 1917م، وخصوصاً مع أعمال جاكبسون R. Jakobson (ت1982م)[4] من حيث التأكيد على الوعي النظري والإجرائي على خصوصية الأدب وتفرده عن غيره من مجالات البحث بالأدبية كما أسماها جاكبسون.

وقد كان هذا النوع من الوعي النقدي الجديد « وعياً مزدوجاً يعيد صياغة العلاقة

2- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، دراسة سيميائية، محمد سالم سعد الله، ص32.

3- ينظر: دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي، ود. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت، ط2، ت 2000م، ص199 - 205.

4- عالم لغوي مشهور ولد بموسكو سنة 1896م، واهتم منذ سنيه الأولى باللغة واللهجات والفولكلور. أسس سنة 1915م بمعية ستة طلبة (النادي الألسني بموسكو) وعنه تولدت مدرسة الشكليين الروس، ثم انتقل إلى براغ، وأسهم في تأسيس (النادي الألسني ببراغ) ويعد من أوائل النقاد الداعين والمؤسسيين للمنهج البنيوي. أهم كتبه: قضايا الشعرية، وعلم اللغة. ينظر: الأسلوبية والأسلوب نحو بديل ألسني في نقد الأدب، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، د. ط، ت 1977م، ص241 - 242.

بين ذات النقد وموضوعه، في الوقت الذي يعيد صياغة كل من الطرفين اللذين تقوم عليهما هذه العلاقة»[5]، مما أنتج مفاهيم جديدة في إطار النظرية النقدية العامة، ومن ضمنها مفهوم (نقد النقد). وقد تنبه بعض الباحثين إلى الضعف التراكمي النظري لهذا المفهوم في النقد العربي مقابل التوافر التطبيقي له، مما أنتج ما أسماه بـ(الثغرة) إذ يقول نبيل سليمان: «النقد ونقده أيضاً يحتلان مكانة هامة في سياق تحقيق النقلات والإضافات على تاريخ الفكر؛ ومعاينة واقعنا الأدبي والنقدي تشير بقوة إلى تحقيق قدر مهم من التراكم، ولكنها تشير أيضاً إلى تلك الثغرة المتمثلة في ضعف نقد النقد»[6]. وإذا كانت إشارة الباحث صحيحة إلى حدٍ بعيد فيما يتعلق بنقد النقد بمفهومه العام، فإنها تبدو أشد تطابقاً مع علم البلاغة، ذلك أن مصطلح (نقد النقد البلاغي) يبدو غريباً وغير متردد في إطار النصوص النقدية العربية قديمها وحديثها، وخصوصاً الجانب النظري لهذا المفهوم. هذا الحضور الضعيف لنقد النقد البلاغي يفتح مجالاً نقدياً واسعاً لكتابة دراسة عنه، ليبدو ما أصطلح عليه (النص الرابع) في حاجة إلى توضيح نقدي يفكك نصوصه في محاولة لإعادة بنائها مرة أخرى.

ب. نقد النقد (الدرس النقدي بوصفه نصاً إبداعياً)، تقديم نظري

إن المعالجات النقدية تبدو من منظور سطحي ذات طبيعة واحدة وشكلية متشابهة، تتمثل في التحليل والتقييم والحكم للنصوص الأدبية الإبداعية، لكن هذا المستوى من الخطاب النقدي يمثل وجهاً واحداً من صور الممارسة النقدية الحديثة. إن المعالجات النقدية تتخذ عدة إجراءات توصيفية تجمعها عبارة جابر عصفور (وعي النقد الأدبي بنفسه)، إذ يتمثل هذا الوعي الذاتي للنقد في مظاهر عدة:

«**أولها**: الكتابات الوفيرة التي تناولت تاريخ النقد الأدبي بوصفه نشاطاً متميزاً.

وثانيها: الكتابات التي تحاول تصنيف حاضر النقد الأدبي، من حيث مذاهبه ومدارسه وتياراته المختلفة في عمليات تأصيل وتفسير لا تخلو من معنى القراءة بكل لوازمها.

وثالثها: الموسوعات النقدية التي تحاول ملاحقة المداخل والمناهج والمصطلحات المتدافعة في إيقاعها الذي لا يكف عن التغير والتحول.

5- نظريات معاصرة، د. جابر عصفور، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، ت 1998م، ص277.

6- مُساهمة في نقد النقد الأدبي، نبيل سليمان، دار الطليعة، بيروت، ط1، ت 1993م، ص5.

ورابعها: ذلك الكم الوفير من الكتابات المتتابعة التي اعتدنا تصنيفها في باب نقد النقد، وهي الكتابات التي تراجع النشاط النقدي في فعل الممارسة من منظور الوصف والتفسير والتقييم. وأخيراً هناك الوفرة اللافتة من كتب النظرية النقدية »[7].

فالخطاب النقدي واحد متعدد، يمثل (نقد النقد) شكلاً منه فضلاً عن كونه من أهم ممارساته التجريبية، ذلك من حيث إن (نقد النقد) بوصفه نشاطاً معرفياً « ينصرف إلى مراجعة الأقوال النقدية كاشفاً عن مبادئها النظرية، وأدواتها التحليلية وإجراءاتها التفسيرية »[8]، في محاولة لوضع تاريخ نقدي لهذه الأقوال نقديةً كانت أم بلاغيةً.

إن كتابة تاريخ نقدي لمفهوم (نقد النقد) « يثير من القضايا والإشكاليات ما يجعل الإقبال عليه مهمة شاقة تشارف المجازفة، فالتوفر على مثل هذا العمل يفترض الاستناد إلى مقاييس صريحة واضحة وموضوعية، حتى نجعل عملنا في مأمن من الاعتباطية والاعتساف، وتضمن له القدر الأوفر من العلمية »[9].

ذلك إن الجدوى المعرفية من نقد النقد تتجاوز حدود قراءة النصوص النقدية ومحاورتها إلى وظيفة جمالية نقدية بتحويلها إلى نصوص إبداعية تحاكي النصوص الإبداعية الأدبية، ولكن بشكلية مختلفة. إذ إن النصوص الإبداعية تحاكي الواقع الخارجي بكل أشكاله، بينما تحاكي النصوص النقدية النصوص الإبداعية، في حين أن النصوص النقدية الثانية أو نقد النقد تتعامل مع النصوص النقدية الأولى بِعَدِّها نصوصاً إبداعية بشكلية كتابة تحليلية منهجية ذات صفة جمالية؛ لذا فإن نص نقد النقد مزدوج الإشارة متعدد المستويات، بسبب كونه نشاطاً « متعدد الوظائف يشير إلى الكتابة الإبداعية من حيث هو كلام عنها، ويشير إلى نفسه من حيث هو كلام على الكلام، ويشير إلى وعيه بنفسه من حيث هو كلام على كلام الكلام، فهو نشاط يشبه اللغة التي هو منها، سواء في قدرتها على الإشارة إلى ما يقع خارجها، أو الإشارة إلى نفسها في فعل إشارتها إلى العالم، والإشارة إلى ذاتها في فعل تعقلها طبيعة إشارتها »[10].

7- نظريات معاصرة، جابر عصفور، ص267.

8- قراءة التراث النقدي، د. جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، ت 1992م، ص20.

9- النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، د. محمد الناصر العجمي، نشر: كلية الآداب ودار محمد علي الحامي، تونس، ط1، ت 1998م، ص5.

10- نظريات معاصرة، جابر عصفور، ص279.

وإذا كانت منهجية الدراسة اللغوية قد أخذت شكلاً مختلفاً، من المعيارية نحو الوصفية، مع كشوف دي سوسير F. Desaussure (ت1913م)[11]، فإن دلالة الكتابة النقدية وعلاقتها باللغة أخذت دلالة مختلفة مع الشكلانيين الروس، إذ أنتج النقاد الشكلانيون فكراً يؤمن بلغة النقد فضلاً عن نقد اللغة المعروف سلفاً، لغة نقد تشير إلى ما يقع خارجها من أعمال أدبية وتشير إلى نفسها من حيث هي وظيفة فاعلة، وذات متجلية بشكلية وصفية إبداعية.

ويمكننا هنا أن نستعير تفريق رولان بارت R. Barthes (ت1980م)[12] بين لغة النقد ونقد النقد ولغة الإبداع الأدبي، في أن «لغة الإبداع تتناول العالم مادة لوصفها وموضوعاً لتأويلها، فيما ينتمي النقد إلى مستوى علامي ثان لاهتمامه باللغة الإبداعية في المقام الأول واعتماده إياها مادة لوصفه، وبذلك تكون صلتهُ بالعالم غير مباشرة»[13]، في حين أنه في نقد النقد تصبح اللغة النقدية ذاتها موضوعاً للوصف والتقويم من حيث «النظر في الأسس النظرية والمنهجية التي ينهض عليها، ومحاولة الحكم بمدى جدواها»[14].

إن نقد النقد ينطلق من فرضية جوهرية ترى النص النقدي إبداعاً لا من الدرجة الثانية، كما كان ينظر إليه، بل من درجة توازي النص الإبداعي الأدبي نثراً كان أم شعراً، ومن ثمَّ فهو قابل لقراءة إنتاجية لا استهلاكية، على الرغم من بنائه التصوري المنطقي.

11- عالم لغوي مشهور اتخذ الدرس اللغوي مع مجيئه منحى جديداً وأسست أفكاره نموذجاً معرفياً امتد تأثيرها إلى مختلف العلوم الإنسانية من فلسفة وانثروبولوجيا وتحليل نفسي وأدب، وهو ما يشير إلى اعتباره رائد علم اللغة الحديث. ترجمت محاضراته إلى اللغة العربية مرات عدة تحت عنوان (دروس في علم اللغة العام) أو (علم اللغة العام) أو (محاضرات في الألسنية العامة). الأسلوبية والأسلوب، ص244.

12- ناقد أدبي وسميولوجي يعد ضمن مشاهير المثقفين الذين برزوا في فرنسا منذ الحرب العالمية الثانية، اهتم بالنقد الأدبي فثار على مناهجه المتوارثة حتى شكّك في قيمة ما تلقنه الدراسات الجامعية الكلاسيكية في ميدان الأدب وقد عمل على إرساء قواعد نقد حديث، من أهم كتبه المترجمة: الدرجة الصفر في الكتابة، ودرس السميولوجيا، ومبادئ في علم الأدلة. الأسلوبية والأسلوب، ص236، وقاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، د. سمير سعيد حجازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، ت 1421هـ- 2001م، ص26.

13- النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، محمد العجيمي، ص521.

14- المرجع نفسه، ص521.

وربما كان من نافلة القول إن «المقروء الإبداعي أكثر انفتاحاً على عملية القراءة من النص التصوري، وإن الرموز اللغوية في النصوص الإبداعية متعددة الدلالة مقابل الرموز أحادية الدلالة في النصوص التصورية؛ من حيث هي نصوص ساكنة دلالياً تقرأ نفسها بنفسها، وتعتمد على فرضيات جاهزة ومقولات مكشوفة، وتفترض نوعاً من المرآوية في التقديم، وعلاقة ثابتة أحادية بين الدال والمدلول»[15]، وكأنها بذلك نقيض النص الإبداعي الأدبي المتعدد الدلالة المتحرك المعنى ذي الانعكاسات المتنوعة، فلا يمكننا أن نفترض تساوياً بين قصيدة شعرية مثلاً، وكتاب نقدي من مثل (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لحازم القرطاجني (ت684 هـ). لكن منهج نقد النقد يرفض ذلك ويرى أن الفارق بين النص الأدبي والنص النقدي (كمي) من حيث نوعية الدلالة وتنوعها واتساعها وتعددها، وإلا فكل نص يحمل شروطه ونسقه الخاص القابل للقراءة والكشف ولو بمنهجيات مختلفة.

والذي يؤكد هذا التحليل تعدد واختلاف القراءات المتعاقبة للنصوص النقدية القديمة مثل: (الصناعتين) لأبي هلال العسكري (ت 395 هـ)، و(أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ)، و(مفتاح العلوم) للسكاكي (ت626 هـ)، إذ تعددت القراءات لهذه النصوص النقدية والبلاغية بين نقاد من مثل: طه حسين في نقده للجرجاني ومحمد مندور في قراءته الإيجابية للجرجاني وشوقي ضيف وشكري عياد، حتى وصل الأمر إلى درجة التضاد في هذه القراءات بين من يضع السكاكي في قمة التصور البلاغي، وبين من يعده السبب الرئيس في جمود البلاغة وتحجرها وتعقيدها ومن ثم الوصول إلى مرحلة عدم التطور وربما الموت. فليست القصيدة أو الرواية هما وحدهما القابلتين لتعدد القراءات، بل النصوص النقدية تحمل في داخلها دلالات متعددة ومتنوعة تجعلها قابلة للقراءة كما يقوم به منهج نقد النقد الذي ننوي معالجته هنا.

هذا المفهوم النظري لنقد النقد لم يغب جانبه التطبيقي عند نقادنا القدامى، بلاغيين أم غير بلاغيين، إذ قام «النقاد بقراءة بعضهم البعض لاكتشاف السلامة النظرية للمقولات، وللاتساق المنطقي للإجراءات»[16] على نحو ما فعل ابن وهب (ت272

15- قراءة التراث النقدي، جابر عصفور، ص53.

16- المرجع نفسه، ص103.

هـ) في قراءته النقدية التحليلية للجاحظ (ت255 هـ) أو القراءة النقدية للقزويني (ت 739 هـ) على السكاكي، فضلاً عن خلافات شراح التلخيص مع السكاكي والقزويني معاً. لكن التنظير لهذا النقد لم يتوفر بهذه الكثافة لا في النقد العربي القديم ولا الحديث منه، بل إن الجانب التطبيقي وفي العصر الحديث خصوصاً يعاني من سطحية وتاريخية معيارية، واقتصر الأمر في أغلب النصوص المنتمية لمفهوم نقد النقد على المراجعة والتفسير وإصدار الأحكام غير المعللة، مما أنتج نقداً غير مؤثر في مسار النقد العربي الحديث، ذلك أن تطبيق منهج نقد النقد بمداه المعرفي الحقيقي قد يساهم في إحداث نقلة حاسمة في الفكر الأدبي والنقدي خصوصاً. «فما نعرفه من تاريخ النقد الأدبي بوجه عام، هو أن كل تغير حاسم في مجال المعرفة الأدبية يقترن بعملية انقطاع معرفي، وأن هذا الانقطاع لا يتأسس إلا بانعكاس النقد على نفسه، وازدواج حركته التي يتحول بها من لغة واصفة لموضوع هو غيرها إلى لغة واصفة لموضع هو إياها، بالمعنى الذي يغدو معه النقد لغة واصفة، موضوعها هو عين ذاتها، وذاتها عين موضوعها»[17].

وتأسيساً على التحليل السابق يمكننا تحديد مفهوم نقد النقد بأنه نشاط معرفي ابستمولوجي (Epistemology)[18] إذ «ينعكس معه النقد على نفسه ليختبر ويوضح الفرضيات التي تستند إليها المناهج والنظريات القائمة والمتوارثة، ومن ثم دور الناقد في تحديد وتعيين أو حتى تأسيس وتشكيل موضوع نقده»[19]. فإذا كان النقد حواراً مع النصوص الأدبية بهدف قراءتها، فإن نقد النقد حوار مع النص النقدي من أجل قراءته أيضاً، انطلاقاً من فرضية إمكانية تحول كل لغة واصفة في نص نقدي إلى لغة موصوفة مثل لغة الإبداع الأدبي. وتكون بذلك قابلة للتحليل والتصنيف، ومن ثم فإن كل نقد يغدو نظرياً موضوعاً للدراسة والتحليل، لا بوصفه معادلاً لنص أدبي منقود، «وإنما لكونه أيضاً مشتملاً على مجموعة مكونات تجعل منه خطاباً مرتكزاً على تشييد علمي وفكري، ضمن منهج ولغة ومنطلق يمكن تحليلها والكشف عن خلفيتها

17- قراءة التراث النقدي، جابر عصفور، ص25 - 26.

18- نظرية المعرفة جماع أصول المعرفة الفلسفية والإنسانية والتجريبية بما فيها أصولها التطبيقية والمنهجية. يستعين بها الناقد عند تحليل الآثار الأدبية أو الفنية. قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، سمير حجازي، ص49.

19- قراءة التراث النقدي، جابر عصفور، ص26.

الإبستمولوجية»[20].

وبما أن عملنا لا يتعلق بنقد النقد بمعناه الأشمل بل بتخصصه البلاغي، فهو يستند أصلاً إلى فكرة النقد البلاغي الذي يبدو بحاجة إلى معالجة نقدية توضح حدوده ومفهومه، وهذا ما يكوّن النقطة الآتية في التمهيد.

جـ. النقد البلاغي (التاريخ البلاغي بوصفه نصاً واحداً)

يثير مصطلح (النقد البلاغي) مشكلة العلاقة بين النقد والبلاغة بوصفهما منهجين في تحليل النصوص والنظر فيها. وليس من غرضنا عرض هذا المشكل، وإنما نود الإشارة إلى أن عملية الفصل بين النقد والبلاغة وخصوصاً في التاريخ الثقافي العربي القديم تبدو عملية غير مجدية من الناحية التطبيقية والتنظيمية، لا سيما في مرحلة النشأة الأولى للمنهجين في تاريخ علوم العربية. وإذا كان النقد في مراحله الأولى وسيلة لتحليل الأدب واكتشاف عناصر القوة أو الضعف في النصوص من خلال الشرح والتعليل حتى الوصول إلى الحكم العام على النص، ومن ثم فهو يضع القواعد المعيارية التي تحاول التقنين لعملية الإبداع الأدبي، فإن النقد بهذا المفهوم لا يختلف عن البلاغة في كثير من الأمور، إذا أخذنا في اعتبارنا أن البلاغة بشكلها الذي انتهت إليه عند السكاكي علم معياري يطبق الأحكام التقييمية في معالجته للنصوص الأدبية ويرمي إلى تعلم ذاته وموضوعه (البلاغة قوانين وإبداع). بمعنى أن المعيارية والتقنين وأحكام القيمة بوصفها غايات للنقد والبلاغة معاً هي في الوقت نفسه «دليل الارتباط الصميمي بين النقد والبلاغة»[21]، وإذا أردنا الدقة أكثر فإن البلاغة «هي القسم من النقد الذي يهتم بأحد أطراف عملية الخلق الفني: النص»[22]، في حين أن النقد حتى في مراحله الأولى تجاوز النص إلى عناصر الإبداع الأخرى (المبدع والمتلقي).

ووفق هذا المنظور النقدي لا أرى جدوى معرفية في البحث عن تشابه البلاغة

20- تاريخ علم الأدب عند الأفرنج والعرب، فيكتور هوجو، د. محمد برادة، ضمن كتاب (قراءة جديدة لتراثنا النقدي)، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ت 1410هـ- 1990م، ج2، ص544.

21- النقد البلاغي عند العرب إلى نهاية القرن السابع الهجري، عبد الهادي خضير نيشان، رسالة دكتوراه (مخطوطة)، كلية الآداب، جامعة بغداد، ت 1989م، ص10.

22- التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، د. حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسية، د. ط، ت 1981م، ص319.

والنقد أو اختلافهما في التفكير النقدي البلاغي العربي القديم، ذلك لأنه، أي النقد العربي القديم في أغلب صوره التطبيقية وحتى النظرية (قواعد بلاغية) ولا يمكن معرفة الأحكام النقدية إلا من خلال أصولها البلاغية «ومن هنا جاء الفصل بين النقد والبلاغة افتعالاً لا يقره واقع النقد العربي ولا خصائص اللغة العربية»[23].

إذا أقررنا هذه النتيجة حول علاقة النقد بالبلاغة في الفكر النقدي العربي القديم نستطيع أن ننطلق لهدفنا الأساسي، وهو تحديد مفهوم النقد البلاغي الذي يعد الأساس لفهم مصطلح (نقد النقد البلاغي). لقد مرّ مصطلح (بلاغة) بأطوار عديدة حمل فيها دلالات متنوعة وربما متضادة وجزئية في أحيان كثيرة حتى وسمه أحد الباحثين بـ (الاضطراب والتداخل)[24]، مما يجعل تحديده صعباً في التحليل الإجرائي.

إلا أننا نريد باصطلاح البلاغة ما استقر عليه عند السكاكي بوصفه مصطلحاً دالاً على ثلاثة علوم مجتمعة هي: البيان والمعاني والبديع. على هذا الأساس يمكننا توصيف مفهوم النقد البلاغي بـ«النقد الذي يتخذ من البلاغة وشروطها في الكلام البليغ مقياساً لنقد النص الأدبي، ويبحث في الأسس الفنية التي يقوم عليها الأدب كما حددتها الدراسات البلاغية»[25].

أي أن النقد البلاغي يعتمد على إجراءات نقدية باستخدام آليات مستمدة من علوم البلاغة بوصفها الأساس في منهجه لمعالجة النصوص الأدبية. وهو بهذا المفهوم يُعد «من أوائل المناهج النقدية التي استعان بها متذوقو الأدب ونقاده في تقويم التجربة الإبداعية»[26]؛ ذلك أن تتبع مراحل تطور هذا النقد عبر تاريخ النقد العربي تؤكد توافره منذ بدأ اللغويون الأوائل معالجة النصوص بطريقة فنية مفارقة لمعالجة النحويين القاعدية. بمعنى إن النقد البلاغي «يضم كل ما تعرضت له كتب النقد والبلاغة القديمة وكثيراً مما استجد في هذه الأيام»[27]. وتكمن مفارقة النقد البلاغي عن كثير من

23- في المصطلح اللغوي، د. أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلمي، العراق، ت 2002م، ص68، وينظر في هذه المشكلة: فن القول، مقدمة إلى دراسة البلاغة والنقد الأدبي، د. شفيع السيد، مكتبة النصر، القاهرة، ط1، ت 2003م، ص23 - 25.

24- ينظر: فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، د. رجاء عيد، منشأة المعارف، مصر، ط2، ت 1988م، ص11.

25- النقد البلاغي عند العرب، عبد الهادي خضير، ص15.

26- المرجع نفسه، ص15

27- النقد البلاغي، د. أحمد مطلوب، مجلة المجمع العلمي العراقي، جـ2، م38، ت 1987م، ص196.

الممارسات النقدية التي استخدمها العرب القدماء، في أن مهمته تتعدى وصف العمل الأدبي والحكم عليه من خلال إصدار قيمة معينة له، إلى وضع قواعد وأصول ومفاهيم ما يمكن الاصطلاح عليه بـ(أصول الكتابة الفنية) التي تساعد على إنتاج الخطاب الأدبي وخصوصاً الشعري منه.

وهنا نستذكر صحيفة بشر بن المعتمر (ت 210 هـ) التي وضع فيها كثيراً من شروط إنتاج الخطاب الأدبي لا سيما الشعري منه[28]. النقد البلاغي الذي يمتد عمره المعرفي الواقعي من أبي عبيدة (ت210 هـ) في مجاز القرآن حتى القزويني في الإيضاح هو الأساس في عمل نصوص التجديد والتحديث البلاغي التي بدأت مع عصر النهضة ممارسة نقد النقد البلاغي بكل أشكاله وذلك بوصف النقد البلاغي نصاً قابلاً لتعدد القراءات المنتجة لاختلاف المفاهيم والرؤى النابعة منه، فهو يحل هنا محل النص الإبداعي كما سبق وأن قررنا، فهو من هذه الناحية شديد الصلة بعملنا، ذلك أن مقاربة نصوص التجديد والحداثة، وعرض مفهوم نقد النقد البلاغي فيها، يحتم علينا معرفة دقيقة وشمولية بتاريخ النقد البلاغي ونصوصه، لاعتماد خطاب التجديد والحداثة عليه بوصفه النص المعتمد في محاولة التجديد أو التحديث إما ببعثه وإحيائه، كما هو مع التجديد، وإما بإلغائه جزئياً أو كلياً، كما هو حادث مع الحداثة والتحديث. هذا الإجراء النقدي حوّل نص النقد البلاغي من وظيفته المعيارية الوصفية لتشريع أسس الإبداع إلى نص تصوري ذي دلالات متنوعة قابلة للتحليل، والقراءة، والدراسة النقدية، مثله في ذلك مثل النص الإبداعي الأدبي، ولكن بتشكيل كتابي وعلائقي وسياقي من نوع آخر يعتمد المنطقية والتحليل والدلالة النقدية بدل الخيال والصور والدلالة الشعرية في النص الإبداعي الأدبي.

د. النص الرابع أو (نقد النقد البلاغي) تفكيك المصطلح

لعل مصطلح (نقد النقد) الذي اختاره (تودوروف Todorov)[29] عنواناً لكتابه

28- ينظر: البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت، ج1، ص75 - 76.

29- تزفيتان تودوروف، بلغاري ولد سنة 1939م، وهاجر إلى فرنسا 1963م، وهو ناقد بنيوي يعد من أهم مطوري نظرية (الأدبية) في فرنسا والتي تركز أساساً على تعيين خصوصية النص الجمالية، من كتبه المترجمة إلى العربية: نظرية المنهج الشكلي، والشعرية، وغير ذلك من الكتب والمقالات. =

النقدي، يعد من الدراسات النادرة التي تحمل صراحة هذا العنوان، فضلاً عن تبني منهجية نقد النقد في ثنايا الكتاب، من حيث إعلان تودوروف نفسه عن رغبته في إنجاز مهمة نقدية أساسية ذات بعد مزدوج تتمثل في «التعرف إلى الأفكار الأدبية والنقدية في القرن العشريني وتمييز الأصلح والأصح بينها، وتحليل التيارات الإيديولوجية للقرن المذكور انطلاقاً من ذلك وتحديد الأسلم والأثبت بينها»[30].

التاريخ الأدبي والنقدي هو النص الممثل لمجال بحث نقد النقد وفق رؤية تودوروف وتصوّره؛ وذلك من أجل تحقيق هدف نقدي مهم، يتمثل بتوصيف الظواهر النقدية وتمييز الأصلح والأصح نقدياً، فضلاً عن معرفة الأسس الإيديولوجية والثقافية التي تقوم عليها هذه المناهج النقدية.

فإذا حاولنا استعارة هذا المفهوم ونقله إلى حقل الدراسات البلاغية والتاريخ البلاغي العربي خصوصاً، واجترحنا مصطلح (نقد النقد البلاغي) أمكننا التعرف عن قرب على الهدف النقدي الذي ننوي متابعته في بحثنا هذا. ولكن لا بدّ أولاً من تفكيك المصطلح لإعادة بنائه مفاهيمياً مرة أخرى.

إن عبارة (نقد النقد البلاغي) تحمل في دلالتها العميقة، حسب أصطلاح (تشومسكي Noamchomsky)[31]، نصوصاً أربعة بدل اثنين، كما يتبادر للذهن عند قراءة تلك العبارة للوهلة الأولى.

فعند تفكيك الاصطلاح يتضح شكله النصي العميق ذو الدلالة الرباعية ليكون ما اصطلح عليه (النص الرابع) بعدّه بديلاً اصطلاحياً عن مفهوم (دراسة نقد النقد البلاغي)، ولكن كيف أربعة نصوص بدل اثنين؟.

النص الأول الذي يشير إليه مصطلح (نقد النقد البلاغي) إبداعي، أدبي، شعرياً كان أم نثرياً، يتشكل مما وضعه شعراء العرب وأدباؤهم منذ زمن القصيدة الجاهلية حتى لحظة الشعر الحر وقصيدة النثر وما بعدها من اصطلاحات تنتمي إلى زمن

=

الأسلوبية والأسلوب، ص240.

30- نقد النقد، رواية تعلم، تزفيتان تودوروف، ترجمة: د. سامي سويداني، منشورات: مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، ت 1986م، ص7، وينظر: ص16.

31- ألسني أمريكي ولد سنة 1928م، تأثر بجاكبسون، أصدر أهم كتبه (الهياكل النحوية) سنة 1957م، فكان الكتاب دستور مذهب جديد في الألسنية هو المذهب التوليدي. الأسلوبية والأسلوب، ص245.

الحداثة وما بعدها[32]، بمعنى آخر من شكل الرجز فالقصيدة العمودية ثم انزياحات الشعراء المحدثين في العصر العباسي موضوعيا وفنيا، ثم شعر الموشحات الأندلسية حتى قصيدة الشعر الحر وقصيدة النثر.

ولا يمكننا أن ننسى بالتأكيد لحظة النص القرآني بكل أبعاده الفنية البيانية والموضوعية، بعدِّه ركيزة أساسية في التطور الجمالي للغة العربية. وهي ركيزة مستمرة في التشكل الدلالي المتطور مع تطور مفاهيم الحياة والزمن، واختلاف آليات القراءة والتأويل، وتطور مناهج النظر في النص القرآني مع ثبات الدال بالطبع بِعَدِّهِ نتاجاً إلهياً غير قابل للزيادة والنقصان، على عكس المدلول المتغير مع تغير الأماكن والأزمان وإن كان تغيراً منضبطاً راجعاً إلى الأصل دوماً[33].

إلا أن افتراق الإبداع الشعري عن الخطاب القرآني من حيث خروج القرآن عن أطر الأبنية الإبداعية الإنسانية بوصفه إلهي التكوين، جعل النص الشعري أكثر قدرة على بيان التطور الجمالي للغة العربية الذي يخضع لمراحل جدلية بين إبداع وإتباع، لا يخضع لها النص القرآني بأي حال من الأحوال. هذا النص الإبداعي تشير إليه كلمة (النقد) الثانية في الاصطلاح، وهي إشارة ضمنية، إذ إن تشكل هذا النقد جاء من تراكم معرفي عبر حوار مع النصوص الأدبية وفق منهجيات النقد المختلفة. وهذا يعني أن هذه الكلمة (النقد) في اصطلاح (نقد النقد البلاغي) ذات دلالة ثنائية إذ إنها تشير ضمناً إلى النص الإبداعي الأدبي بِعَدِّهِ مجال المعالجات النقدية، وتشير صراحة لهذه المعالجات النقدية التي تمثل مفهوم (النص الثاني) بوصفه مصطلحاً دالاً على الجهد النقدي البلاغي الذي وضعه علماء البلاغة العربية وأعلامها منذ أبي عبيدة في (مجاز القرآن) حتى القزويني في (الإيضاح).

لقد اتخذ النص الثاني أي النقدي، عبر تاريخ تشكُّله العام منهجيات مختلفة في

32- إن تركيزنا على الإبداع الشعري وأشكاله سببه أن هذا الإبداع الأدبي يعد أهم ما يميز التطور الجمالي في استخدام اللغة العربية بشكلها العدولي الانحرافي، لكن هذا التميز لا يلغي بالطبع الصيغ الإبداعية الأخرى، إلا أن مجال بحثها ليس من صلب عملنا.

33- ينظر: المجالات الدلالية في القرآن الكريم (كتاب الموت أنموذجاً) دراسة في أشكال الخطاب القرآني، أحمد عبد الجبار، بحث منشور في مجلة التربية، المعهد العالي لإعداد المعلمين، ليبيا، زليتن، ع1، ت2004م، ص13 - 14.

محاولة لتعدد القراءات المسلطة على النص الأدبي، إلا إن هذه الاتجاهات النقدية المشكلة للنص الثاني اتخذت شكلين متمايزين في مقاربة النصوص الأدبية، أولهما: «المقترب الخارجي (Approach External) وهو يُعنَى بتحليل المرجعيات التي تغذي النصوص بعناصرها ساعياً إلى كشف الأثر الذي تتركه تلك المرجعيات في النصوص، وينضوي في إطار هذا المقترب عدد من المناهج مثل المنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي، وثانيهما: المقترب الداخلي (Internal Approach) وينصرف اهتمامه إلى استكشاف المزايا الأدبية للنصوص، وبيان نظمها الداخلية، ودلالاتها النصيّة. ويدخل ضمن هذا المقترب عدد من المناهج مثل: المنهج الشكلي والبنيوي»[34].

إن تاريخ النص الثاني ينحصر في هذين المقتربين الكبيرين، ويمثل النقد البلاغي العربي، بمراحله التطورية وبمرتكزاته الأساسية، جزءاً من هذا التاريخ النقدي العام. ولعل الجهد البلاغي العربي أكثر التصاقاً بالمقترب الداخلي، ذلك لأن كل أساليب البلاغة تركز على النص أولاً، ولا يدخل القارئ والكاتب إلا بوصفهما عاملين ثانويين في التحليل البلاغي بكل أشكاله، بل يكاد دورهما ينعدم في كثير من الأساليب البلاغية، وخصوصاً في مجال الصورة الفنية أو (علم البيان) كما اصطلح عليه البلاغيون.

إن تشكيل التاريخ البلاغي العربي بوصفه ممثلاً لمفهوم النص الثاني استغرق سبعة قرون من التطور والتغير، منذ كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، ثم الجاحظ في (البيان والتبيين)، وابن المعتز (296 هـ) في (البديع)، ثم لحظة عبد القاهر الجرجاني ونصيّه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة)، حتى وصل التشكيل مرحلة السكاكي وإنجازه التنظيري المهم (مفتاح العلوم)، الذي يمثل أعلى صيغ التنظير البلاغي إلى اليوم في مجال الدراسات البلاغية.

ثم ابتدأت مرحلة الشروح والتلخيصات مع القزويني في (التلخيص، والإيضاح)، هذه المرحلة التي تعد البداية الأولية في ممارسة (نقد النقد البلاغي) من حيث إن القزويني مارس نقداً مفاهيمياً واصطلاحياً لنص أستاذه السكاكي (مفتاح العلوم) مشكلاً بذلك بداية جديدة في مرحلة بناء النص الثالث، الذي ينبني مفهومه من ممارسات النقاد القرائية للنصوص الأدبية، بل للنصوص النقدية بوصفها مجال بحثهم في مقاربتهم النقدية

34- الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت، ط1، ت 1999م، ص53 - 54.

المنضوية تحت مفهوم كلمة نقد الأولى في اصطلاح (نقد النقد البلاغي). فإذا كانت دلالة كلمة النقد الثانية ذات بعدين إبداعي ونقدي كما أوضحنا، فإن كلمة نقد الأولى ذات بعد دلالي واحد يمثل مفهوم النص الثالث أي نقد النقد. هذا النص الذي تأسس في بداياته من تعليقات واعتراضات البلاغيين القدماء بعضهم على بعض، ثم خلافاتهم المفاهيمية أو التنظيرية أو التطبيقية في مجال التقعيد البلاغي العربي. هذه البوادر الأولية لم تطور بشكل منهجي واضح إلا بعد مرور أكثر من عشرة قرون، أي في العصر الحديث، وذلك حين ابتدأ نقاد البلاغة مراجعة التاريخ البلاغي القديم في محاولة لإعادة قراءته بشكل مختلف وتأصيل تطوره ورسم حدوده ومرتكزاته الأساسية. هذه القراءة الجديدة للفكر البلاغي القديم فرضه التطور الحاصل في النصوص الإبداعية (النص الأول) الأدبية خصوصاً في التشكيل الشعري الحديث مع عصر النهضة، والشعر الجديد في مدرسة الديوان ومدرسة أبولو والمهجر، ثم الشعر الحر فقصيدة النثر؛ مما فرض ضرورة نقدية نجمت عن مفارقة منهجية بين تطور هذه النصوص وبقاء أساليب التحليل البلاغي على وضعها الذي أسس له القدماء. ضرورة ترى في إعادة النظر في الموروث حتمية نقدية أسستها تلك المفارقة المنهجية بين مستوى إبداع النص الأول، وجمود أساليب النص الثاني المحدود في آلياته ومقارباته النابعة من زمن تشكله القديم.

أمّا محاولة محمد عبده الاستبدالية، حين أظهر كتاب عبد القاهر الجرجاني: (دلائل الإعجاز)، فإنها تبدو، وفق قراءة نقدية، أولى المحاولات الممثلة للنص الثالث (نقد النقد البلاغي)، ذلك أن عبده من خلال إجرائه الاستبدالي القائم على رؤية نقدية لمناهج البلاغة السائدة حينه، مثل لحظة تجديد بلاغي مهدت لغيرها من المحاولات التجديدية بل حتى الحداثية فيما بعد؛ إذ تبعت محاولة الشيخ محاولات تجديدية أُخرَ مثل محاولة أمين الخولي وأحمد الشايب والمراغي، ثم طه حسين في مرحلة التجديد البلاغي.

ثم جرت قراءات أخرى تدخل في مفهوم النص الثالث (نقد النقد البلاغي) لكنّها تعتمد منهجيات الحداثة وما أنجزته من مقتربات نقدية تعتمد الأسس المعرفية للحداثة. هذه المرحلة التي أطلق عليها محمد العمري «مرحلة الكتابة من منظور حداثي لساني واعٍ باختياره ومخلص له»[35]، ولعلنا نستذكر ضمن هذه المرحلة أعمالاً تنتمي إلى

35- البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، د. محمد العمري، دار أفريقيا الشرق، المغرب، د. ط، ت 1999م، ص8.

عبد السلام المسدي، وصلاح فضل، وشكري عياد، ومحمد عبد المطلب، وسعد مصلوح، وغيرهم كثير ممن وظفوا مناهج الحداثة في مراجعة الفكر البلاغي لتطويره أو حتى استبداله. وهنا نصل إلى ما أزعم الاصطلاح عليه بأنه (النص الرابع) من حيث هو مفهوم دال على منهجية تستخدم القراءة النقدية في محاورة النصوص النقدية الممثلة لنقد النقد البلاغي، وبمعنى آخر إنَّ عملنا ينحصر في محاولة معرفية ذات إجراء نقدي يحدد مجاله بمحاولات نقد النقد البلاغي المتوافرة بأشكال مختلفة في مرحلتي التجديد والحداثة البلاغية، فضلاً عن التاريخ البلاغي القديم.

إنّ هذه المعالجات النقدية المنتمية إلى مفهوم (نقد النقد البلاغي) لم تتخذ شكلاً مظهرياً واحداً فقد تشكلت بأنماط متنوعة منها ما يمارس نقد النقد المفاهيمي، حيث يكون المفهوم واصطلاحه مجالاً للمحايثة النقدية. بينما يأخذ نقد النقد في بعض معالجاته وجهة تنظيرية تتصل بالتفريعات والتقسيمات، على حين يأخذ بعضها شكلاً تطبيقياً من حيث نقد المعالجات النقدية التطبيقية النابعة من نظريات نقدية قديمة أو حديثة، وقياس مدى انسجام التطبيق مع التنظير.

ما يحاول النص الرابع فعله نقدياً هو كتابة تاريخ معرفي لهذه المعالجات وتوصيفها ظاهرياً، ثم محاولة تحليلها وبيان الجدوى المعرفية النقدية من كتابتها، ومدى إحداثها للقلق النقدي في الفكر البلاغي القديم والحديث مما أنتج، أو لم ينتج فكراً بلاغياً انزياحياً ومفارقاً للفكر القديم، في محاولة لعصرنة هذا الفكر عند من يؤمن بوجوب بقائه (مرحلة التجديد) ولكنه بقاءٌ مع المراجعة والتغيير، أو لتحديث هذا الفكر البلاغي في محاولة لاستبداله جزئياً من خلال الانتقاء النقدي أو إلغائه تماماً

(مرحلة الحداثة) أما إلغاء مفاهيمياً إذ لا يبقى منه غير كلماته ذات الدلالة الحديثة، أو حتى إلغاء كلماته ومفاهيمه معها في أقصى درجات الحداثة تطرفاً، إذ لا يبقى من التراث البلاغي شيء غير الذكرى، عبر المقارنات المنهجية بينه وبين منهجيات الدراسة الحداثية.

إن حركتي التجديد والحداثة البلاغية لم تكن لتحقق ما حققته واقعياً إلا من خلال تبني مفهوم (نقد النقد البلاغي) في كثير من نصوصها التجديدية أو الحداثية، فإذا أردنا فهماً حقيقياً لتلك المرحلتين كان لا بد من التوافر على دراسة نقد النقد البلاغي المتضمن في أعمالهما، بوصفه الطريق لخطاب التجديد والتحديث من خلال استخدام

آلياته القائمة على المراجعة النقدية للمفاهيم والمصطلحات، والمبادئ الأساسية للنظرية البلاغية العربية ومحاولة تفسيرها أو تأويلها، وتحليل الأدوات الإجرائية التطبيقية التي تنبع من النظرية البلاغية، وترابطها المنطقي والفني في مقاربة النص الإبداعي. إن دراسة نقد النقد البلاغي يعد الركيزة الأساسية أو الآلية الإجرائية التمهيدية لفهم محاولات التجديد والحداثة البلاغيتين في العصر الحديث، فضلا عن إن تاريخنا البلاغي العربي القديم الذي يحوي كثيرا من هذه الممارسة الميتانقدية يمثل بتصور معين أولى محاولات الخروج عن النمط المعياري الثابت في الثقافة البلاغية العربية القديمة. إن هذا الخروج التراثي في البلاغة العربية مهد بشكل أو آخر لمحاولات الخروج والتحول التي جرت في مرحلتي التجديد والحداثة مع عصر النهضة وما بعدها في محاولة لإعادة كتابة البلاغة العربية وأحيائها كما حدث مع مرحلة التجديد أو تعديلها أو إلغاءها مثل ما حدث مع مرحلة الحداثة، وقد كان نقد النقد البلاغي في كل هذه المراحل الثلاث المحفز والممهد لفكرة التغيير والتجاوز البلاغي ومن هنا تأتي الجدوى النقدية والمعرفية لدراسته وتتبعه ليتشكل لنا ما اصطلحت عليه بداية بالنص الرابع.